آداب الطريق

للأستاذ عبد الحفيظ فرغلى القرنى

الأستاذ بدار المعلمات بالزمالك

(٦)

إن مزيدا من العقد والمشكلات النفسية تحتاج كثيرا من النفوس ، وإن الهزات العاطفية والوجدانية ، والاضطرابات الاجتماعية والاقتصادية تؤثر تأثيرا كبيرا ، فى كثير ممن ينقصهم الاستعداد لتلقى هذه المشكلات وحلها ، وقد يلجأ البعض إلى الانتحار كوسيلة ناجحة للتخلص مما ينتابه من ألم وضيق ، وقد يلجأ البعض إلى التخريب والتدمير كتعبير عما يحس به من قلق ، أو تنفيس عما يساوره من وساوس وأحاسيس .

وينصح علماء النفس أصحاب هذه المشكلات بالتروى وضبط النفس ، وعن طريق الدراسات المختلفة يحاولون وضع علاج لهذه الأمراض .

ولكن الدواء الوحيد سبق إليه الصوفية من قديم . ولا نتخطى الصواب حين نرى أن فكرة التسليم لقضاء الله ، واللجوء إليه والتوكل عليه ، وتفويض الأمر له ، والصبر أمام الشدائد ، وقهر دواعى النفس من حقد وحسد وغيرة هى الأساس السليم الذى تمكن الصوفية به من إقامة مجتمع سليم خال من التعقيد والمشكلات النفسية .

وحقا ذلك . فليست هذه المشكلات ناشئة فى الأصل — إذا فتشنا — إلا عن كارثة مالية أو صدمة عاطفية أو مشكلة عائلية أو إحساس بالظلم . وكلها سهلة الحل إذا اعتقد الإنسان اعتقاداً راسخا أن حكمته وتجاربه وعقله الراسخ لا يجدى شيئا أمام قضاء الله وقدره .

وقديماً سأل صاحب كليلة ودمنة — على لسان الجرذ — خليلته الحمامة المطوقة : كيف وقعت فى هذه الورطة وأنت من الأكياس ؟ فأجابت : ألا يعلم أنه مامن شىء

من الخير والشر إلا وهو مقدور على من تصيبه المقادير ؟ وهى التى أوقعتنى فى هذه الورطة . فقد لا يمتنع من القدر من هو أقوى منى وأعظم أمراً ، وقد تنكسف الشمس والقمر إذا قضى عليهما ذلك .

وقد دأب القرآن الكريم على أن يذكرنا بذلك . فهو القائل : « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة . وسبحان الله وتعالى عما يشركون » .

وهو القائل « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » وهو القائل « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمه وأولئك هم المهتدون » .

ولم يكتف الصوفية فى حل هذه المشكلات بمجرد العلم ، ولكنهم استعانوا على حلها بتربية الإرادة عمليا . وسلكوا فى ذلك طريق ترويض النفس ومخالفتها ، ووصفوا منهجا دقيقا ، ينصحون فيه بالسياحة لاكتساب التجارب ، والعزلة لتربية النفس ، والصمت لتقوية الإرادة ، والجوع لقمع الشهوة وتغليب الروح ، ومداومة الذكر لاستحضار الهيبة وحصول الأنس بالله وغير ذلك مما يتناسب وحالة المريد حتى ينتصر فى جهاده .

والصوفية فيما بينهم قد حلوا مشكلة الفراغ حلا معقولا ، وأشرت إلى ذلك فيما سبق ، وأضيف . أنه الآن رغم جهد المفكرين وعلماء التربية والاجتماع فى وضع البرامج الواسعة ، ليستفيد الطلبة والطالبات فى أوقات فراغهم ، واعدادهم لذلك النوادى الرياضية والثقافية والمعسكرات الصيفية والمنظمات المختلفة ، إلا أننا لا نزال نرى الطرق تعج بالمتسكعين ، الشواطىء تموج بالشبان الرقعاء الذين لا هم لهم إلا المجون والخلاعة وقتل الأخلاق ، وما أكثر ما نرى ونسمع ونقرأ ! وما خفى كان أعظم ! وليس هذا عيب المناهج الموضوعة ، ولكنه عيب النفوس التى لم تتشبع بعد بالمبادىء الكريمة التى تهدف إليها هذه المشروعات ، ولم تتفاعل مع الحيوية الدافقة التى تسرى مع تيار هذه النهضة المباركة .

أما الصوفية فإنهم يشكون قلة الفراغ ، وليس لديهم متسع من الوقت ، فكل دقيقة من حياتهم لها حساب ، وكل وقت له حقوق .

إن أعقد المشكلات فى نظر الناس جميعا هى الجهل وقد استعان القادة المفكرون

بكل الوسائل التى تمحو هذا العار من المجتمع . فسخروا وسائل الإعلام وفتحوا المدارس وعمموا التعليم وجعلوه مجاناً وإجبارياً فى بعض مراحله وحاربوا الجهل بين الكبار ، ونجحت كثير من الدول فى القضاء على الأمية . فماذا أفاد العلم وانتشاره هل خفف من ويلات الإنسانية ؟ هل هذب العلم من ضراوة النفوس ووحشيتها ؟ هل نظم العلم المجتمع تنظيما يكفل له الحياة الرغدة السعيدة التى لا فرق فيها بين سيد أو قوى وضعيف أو أبيض وأسود ؟ هل حد العلم من جشع المستعمرين وسيطرة المستغلين وعدوان الظالمين ؟ .

كلا لقد نجح العلم فى وقتنا هذا فى خلق مدنية حديثة تسيطر عليها المادة سيطرة كاملة ، وتحل الآلة فيها مكان الكائن الحى فى كثير من الأحيان . تجعل للعقل السلطان النافذ عليها . ولكن أين مكان الروح فى العلم الحديث ؟ أبدا لم يحقق العلم شيئا للجوانب الروحية ولذلك ترى ما ترى . لقد أصبح العلم سلاحا فتاكا فى يد الأقوياء فخلقوا منه الدمار ، ونشروا به الذعر وروعوا به الآمنين ؛ واعتدوا به على الضعفاء والأبرياء .

لقد خلق العلم مشاكل وجدد مذاهب وولد نزعات خير منها الجهل . أجل فليست الوجودية والشيوعية والتيارات الإلحادية إلا وليدة فلسفات فتح العلم أبوابها ولم يغلقها ، وعصفت تلك التيارات المتطرفة فى طريقها بالأخلاق وقوضت المثل ، وعما قريب تقوض ما شيده العلم من حضارات .

وما العلاج إذن ؟ هل تغلق المدارس ونحطم المكتبات وننادى بعدم التعلم ؟ كلا . ولكننا نستأنس بنظرة الصوفية إلى العلم .

العلم فى نظر الصوفية وسيلة إلى تهذيب الناس والأرواح وكل علم لا يهدف إلى هذا فلا فائدة فيه .

يدعو الصوفية إلى التعليم ، ليدرك المتعلم من ورائه حقيقة وجوده ، ويعرف قيمة روحة ، ويرى من نافذة عقله وروحه مبدع الوجود ورب الكائنات ، ولذلك امتزجت مناهج التعليم فى نظرهم بالأخلاق ، فهى الوسيلة لاكتساب المعارف بحقيقتها لقوله تعالى : « واتقوا الله ويعلمكم الله » ، ومصداقا لقوله عليه الصلاة السلام : « تعلموا العلم وتعلموا له السكينة والحلم » ، « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم » ، وكانت للعلم ثمار هى الورع والخشية التى تحقق قوله تعالى « إنما يخشى الله من عباده

العلماء ، وكانت خشية العلماء التواضع ، وكلما ازداد العالم علما أدرك أنه لم ينل شيئا من العلم ، وليس هذا غريبا ، فهو يؤكد قول أحد الفلاسفة القدماء « أدركت حقيقة واحدة هى أننى لا أعلم شيئا » وسئل القاضى عياض عن العلم فقال : هو الجهل ، وترجم أحد العارفين عن هذا المعنى بقوله :

عجزت — أجل — عن درك سر وجودى وجهلت حتى صار جهلى شهودى

العلم فى نظر الصوفيه هو ما هداك إلى الله لاما أبعدك عنه ، وإذن فالعلم فى رأيهم خلق محض ، وتهذيب مطلق ، ويستوى فى ذلك النظرى منه والعملى ، فهم لا يمنعون العلوم الحديثة بفروعها المختلفة طالما كان الهدف من وراثها إدراك سر الوجود ، واستنباط الدليل على القدرة الإلهية المبدعة التى تدعونا « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » وتنادى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » ولا تفتأ تقول بين آن وآخر « إنما يتذكر أولو الألباب » .

والذى يتهم الصوفية بالجمود فى ذلك غير منصف لهم ، فالصوفية فى منتهى الجرأة ولعلهم أول ناس وجهوا أنظارهم إلى السماء وأفلاكها باحثين عن الحقيقة المجردة وأدركوا من وراء ذلك أسرارا ربما يمر على الباحثين أجيال طويلة قبل أن يدركوها وإنما هداهم إليها الفطرة السليمة ، والنظرة الثاقبة والرغبة الصادقة فى معرفة واجب الوجود .

يتبع